محمد الطاهر بْن عاشور

# أعــلام التفسيـر

محمد الطاهر بْن عاشور
وتفسيره المسمي: التحرير والتنوير
أو: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد
من تفسير الكتاب المجيد

كَانَ جَامع الزيتونة مصنعا لرجال أفذاذ قادوا حَيَاة شعوبهم قبل أَن يقودوا حياتهم، فِي وَقت اضْطَرَبَتْ فِيهِ معالم الْحَيَاة، فَكَانُوا منارات للهدى وعلامات لطريق السداد. و " مُحَمَّد الطَّاهِر بن عاشور " هُوَ أحد أَعْلام هَذَا الْجَامِع، وَمن عظمائهم المجددين. حَيَاته المديدة الَّتِي زَادَت على 90 عَاما كَانَت جهادًا فِي طلب الْعلم، وجهادا فِي كسر وتحطيم أطواق الجمود والتقليد الَّتِي قيدت الْعقل الْمُسلم عَن التفاعل مَعَ الْقُرْآن الْكَرِيم والحياة المعاصرة.

أحدثت آراؤه نهضة فِي عُلُوم الشَّرِيعَة وَالتَّفْسِير والتربية والتعليم والإصلاح، وَكَانَ لَهَا أَثَرهَا الْبَالِغ فِي اسْتِمْرَار الزيتونة " فِي الْعَطاء والريادة ".

وَإِذا كَانَ من عَادَة الشرق عدم احتفاظه بكنوزه، فَهُوَ غَالِبا مَا ينسى عمالقته ورواده الَّذين كَانُوا ملْء السّمع وَالْبَصَر، ويتطلع إِلَى أفكار مستوردة وتجارب سَابِقَة التَّجْهِيز، وينسى مصلحيه ومجدديه، وَنبت بيئته وغرس مبادئه!!

لم يلق الطَّاهِر تَمام حَقه من الاهتمام بِهِ وباجتهاداته وأفكاره الإصلاحية؛ وَرُبمَا رَجَعَ ذَلِك لأَن اجتهاداته تحارب الجمود الْعقلِيّ والتقليد من نَاحيَة، وتصطدم بالاستبداد من نَاحيَة أُخْرَى، كَمَا أَن أفكاره تسْعَى للنهوض والتقدم وفْق مَنْهَج عَقْلِي إسلامي، وَلَعَلَّ هَذَا يبين لنا سَبَب نِسْيَان الشرق فِي هَذِه الفترة لرواده وعمالقته!!

**آل عاشور:**

أصل هَذِه الشَّجَرَة الزكية الأول هُوَ مُحَمَّد بن عاشور، ولد بِمَدِينَة سلا من الْمغرب الأَقْصَى بعد خُرُوج وَالِده من الأندلس فَارًّا بِدِينِهِ من الْقَهْر والتنصير. توفّي سنة 1110هـ وَقد سَطَعَ نجم آخر وَهُوَ الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بن عاشور وَهُوَ جد مترجمنا، ولد سنة 1230هـ وَقد تقلد مناصب هَامة كالقضاء والإفتاء والتدريس والإشراف على الأَوْقَاف الْخَيْرِيَّة والنظارة على بَيت المَال والعضوية بِمَجْلِس الشورى.

وَمن أشهر تلاميذه الشَّيْخ مُحَمَّد الْعَزِيز بوعتور وَالشَّيْخ يُوسُف جعيط وَالشَّيْخ أَحْمد بن الخوجة. وَالشَّيْخ سَالم بوحاجب وَالشَّيْخ مَحْمُود بن الخوجة وَالشَّيْخ مُحَمَّد بيرم. وَمن سلالة آل عاشور وَالِد شَيخنَا الشَّيْخ مُحَمَّد ابْن عاشور وَقد تولى رئاسة مجْلِس إدارة جمعية الأَوْقَاف ثمَّ خَلفه عَلَيْهَا " أَبُو النخبة المثقفة " مُحَمَّد البشير صفر حَيْثُ عينته الدولة نَائِبا عَنْهَا فِي تِلْكَ المؤسسة وَقد تدعمت الصِّلَة وتمتنت بَين الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور الْجد وتلميذه مُحَمَّد الْعَزِيز بوعتور الْوَزير نتج عَنْهَا زيجة شَرْعِيَّة لابنَة الثَّانِي - مُحَمَّد الْعَزِيز بوعتور - على ابْن الأول - الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور الْجد - وَهَكَذَا تمت أواصر هَذِه العائلة بالعائلات التونسية وَأخذت مَكَانهَا وارتبطت صلاتهَا فَكَانَت شَجَرَة طيبَة زيتونة لا شرقية وَلا غربية أَصْلهَا ثَابت وفرعها فِي السَّمَاء تؤتي أكلهَا كل حِين بِإِذن رَبهَا.

**مولده ونشأته (1973/1879):**

بشّرت هَذِه العائلة الشَّرِيفَة بِوِلادَة الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور بالمرسى ضاحية من ضواحي العاصمة التونسية فِي جُمَادَى الأولى سنة 1296 هـ الْمُوَافق لشهر سبتمبر 1879م.

نَشأ الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور فِي بيئة علمية لجده للأَب قَاضِي قُضَاة الْحَاضِرَة التونسية وجده للأُم الشَّيْخ مُحَمَّد الْعَزِيز بوعتور. فَفِي مثل هَذَا الْوسط العلمي والسياسي والإصلاحي شب مترجمنا فحفظ الْقُرْآن الْكَرِيم حفظا متقنا مُنْذُ صغر سنه وَحفظ الْمُتُون العلمية كَسَائِر أَبنَاء عصره من التلاميذ ثمَّ تعلم مَا تيَسّر لَهُ من اللُّغَة الفرنسية.

ارتحل إِلَى الْمشرق الْعَرَبِيّ وأوروبا وشارك فِي عدَّة ملتقيات إسلامية. كَانَ عضوا مراسلا لمجمع اللُّغَة الْعَرَبيَّة بِالْقَاهِرَةِ سنة 1956م، وبالمجمع العلمي الْعَرَبِيّ بِدِمَشْق سنة 1955م. اشْتهر بِالصبرِ والاعتزاز بِالنَّفسِ والصمود أَمَام الكوارث، والترفع عَن الدُّنْيَا، حاول أَقْصَى جهده إنقاذ التَّعْلِيم الزيتوني وتصدى لَهُ بمعارفه ويقينه وَلَكِن أَيدي الأعادي تسلطت على هَذِه المنارة العلمية فألغتها سنة 1961م فَتَوَلّى الْعلم بتونس وانزوى حَتَّى توفّي الإِمَام الشَّيْخ رَحمَه الله يَوْم الأَحَد 12 أوت 1973م وَدفن بمقبرة الزلاج بِمَدِينَة تونس رَحمَه الله تَعَالَى وَجَعَلنَا خير خلف لخير سلف.

**مسيرته الدراسية والعلمية:**

الْتحق الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور بِجَامِع الزيتونة فِي سنة 1303هـ/ 1886 م وثابر على تَعْلِيمه بِهِ حَتَّى أحرز على شَهَادَة التطويع سنة 1317هـ/1899م وَسمي عدلا مبرزا. ابْتِدَاء من سنة 1900 م إِلَى سنة 1932 أقبل على التدريس بِجَامِع الزيتونة

والمدرسة الصادقية مدرسا من الدرجَة الثَّانِيَة فمدرسا من الدرجَة الأولى سنة 1905م، ثمَّ عضوا مؤسسا للجنة إصْلاح التَّعْلِيم بِجَامِع الزيتونة سنة 1910م. الْتحق الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور بِالْقضَاءِ سنة 1911م فَكَانَ عضوا بالمحكمة العقارية وقاضيا مالكيا ثمَّ مفتيا مالكيا سنة 1923م فكبير الْمُفْتِينَ سنة 1924م فَشَيْخ الإسلام للْمَذْهَب الْمَالِكِي

سنة 1932م، وَقد بَاشر رَحمَه الله كل هَذِه المهام بمهارة ودقة علمية نادرة وبنزاهة وَحسن نظر فَكَانَ حجَّة ومرجعا فِي مَا يقْضِي بِهِ. سمي شيخ جَامع الزيتونة وفروعه لأوّل مرّة فِي سبتمبر سنة 1932م بعد أَن اشْترك فِي إدارة الْكُلية الزيتونية، وَلكنه استقال من مشيخة جَامع الزيتونة بعد سنة (سبتمبر سنة 1933م) ثمَّ سمي من جَدِيد شَيخا لجامع الزيتونة فِي سنة 1945م. وَفِي سنة 1956م شَيخا عميدا للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدَّين حَتَّى سنة 1960م حَيْثُ أُحِيل إِلَى الرَّاحَة بِسَبَب موقفه تجاه الحملة الَّتِي شنها بورقيبة يَوْمئِذٍ ضد فَرِيضَة الصّيام فِي رَمَضَان. كَانَ مُقبلا على الْكِتَابَة وَالتَّحْقِيق والتأليف، فقد شَارك فِي إنْشَاء مجلة السَّعَادَة الْعُظْمَى سنة 1952م وَهِي أول مجلة تونسية مَعَ صديقه الْعَلامَة الشَّيْخ مُحَمَّد الْخضر حُسَيْن رَحمَه الله.

وَنشر بحوثا عديدة خُصُوصا فِي الْمجلة الزيتونية ومجلات مشرقية مثل هدى الإسلام والمنار وَالْهِدَايَة الإسلامية وَنور الإسلام ومجلة مجمع اللُّغَة الْعَرَبيَّة بِالْقَاهِرَةِ. كَمَا نشرت لَهُ مجلة الْمجمع العلمي بِدِمَشْق. شَارك فِي الموسوعة الْفِقْهِيَّة الَّتِي تشرف عَلَيْهَا وزارة الأَوْقَاف والشئون الإسلامية بالكويت بمبحث قيم.

**شُيُوخه:**

اكْتسب الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور ثقافة وَاسِعَة شملت التَّفْسِير والْحَدِيث والقراءات ومصطلح الحَدِيث وَالْبَيَان واللغة والتاريخ والمنطق وَعلم الْعرُوض وأعمل فكره فِيمَا حصله وَتوسع فِي ذَلِك وحلله. فقد تخرج على أَيدي ثلة من عُلَمَاء عصره امتازوا بثقافة موسوعية فِي عُلُوم الدَّين وقواعد اللُّغَة الْعَرَبيَّة وبلاغتها وبيانها وبديعها إِلَى جَانب قدرَة على التَّبْلِيغ وَمَعْرِفَة بطرق التدريس والتركيز على تربية الملكات فِي الْعُلُوم وَمن أشهرهم الشَّيْخ مُحَمَّد النجار وَالشَّيْخ سَالم بوحاجب وَالشَّيْخ مُحَمَّد النخلي وَالشَّيْخ مُحَمَّد بن يُوسُف وَالشَّيْخ عمر بن عاشور وَالشَّيْخ صَالح الشريف رَحِمهم الله تَعَالَى جَمِيعًا.

وَإِذا تصفحنا حَيَاة هَؤُلاءِ الأَعْلام وجدناها حَيَاة علمية زاخرة حافلة بجلائل الأَعْمَال قد أعْطوا الْحَيَاة التونسية عَطاء جزيلا فِي الدَّين والاجتماع وَالأَدب والسياسة وَهَؤُلاء النبغاء وَإِن لم يتْركُوا مؤلفات ضخمة إِلا أَنهم تركُوا تلاميذ شهدُوا لَهُم بطول الباع فِي نقد الآثَار والمناهج وتتبع الهنات اللُّغَوِيَّة، وَقد كَانَ الشَّيْخ بوحاجب أخصائيا فِي عُلُوم اللُّغَة والنحو والبلاغة وَالأَدب.

والأستاذ عمر بن الشَّيْخ ماهر فِي الْفِقْه والمنطق وَالْكَلام والفلسفة. وَالشَّيْخ مُحَمَّد النجار كَانَ جَامعا لشتى الْعُلُوم الَّتِي تدرس بِجَامِع الزيتونة.

وَهَؤُلاء الْعلمَاء الَّذين تتلمذ عَلَيْهِم الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور كَانُوا ثَمَرَة لمصلحين أسهموا الْحَيَاة التونسية إسهاما جَلِيلاً على شَتَّى المستويات الأدبية والاجتماعية أَمْثَال الشَّيْخ إِبْرَاهِيم الريَاحي وَإِسْمَاعِيل التَّمِيمِي والوزير خير الدَّين باشا صَاحب أقوم المسالك

وَالشَّيْخ مَحْمُود قبادو. وَلَقَد كَانَ هَؤُلاءِ الْعلمَاء زعماء الْمدرسَة الإصلاحية التونسية، وَكَانَت فرعا مهما للمدارس الإصلاحية الَّتِي نشرت فِي الْعَالم الإسلامي كالمدرسة الدهلوية والمدرسة الوهابية والمدرسة الأفغانية - نِسْبَة إِلَى جمال الدَّين الأفغاني - وَهَذِه الْمدرسَة إِلَى جَانب الْمدرسَة المغربية تتفق مَعَ مدارس الْعَالم الإسلامي فِي الأسس والمبادئ وتختلف عَنْهَا فِي الأساليب والطرائق. بيد أَنَّهَا تلتقي جَمِيعًا حول هدف موحد هُوَ مقاومة التَّخَلُّف المزري الَّذِي تردى فِيهِ الْمُسلمُونَ بالرغم من أَن دينهم دين الْفِكر والحضارة وَالْعلم والمدنية.

**تأثره بمفكري عصره:**

لقد كَانَ للحركة الإصلاحية الَّتِي تزعمها السَّيِّد جمال الدَّين الأفغاني وتابعها تِلْمِيذه الشَّيْخ مُحَمَّد عَبده صداها الْبعيد فِي الْعَالم الإسلامي، فقد فتحت بصائر النَّاس وحركتهم عَن طَرِيق مجلة العروة الوثقى والزيارات المتتابعة للبلدان الإسلامية من قبل الشَّيْخَيْنِ الأفغاني وَمُحَمّد عَبده. وَفِي هَذَا النطاق تتدرج زيارتي الشَّيْخ مُحَمَّد عَبده إِلَى تونس الأولى كَانَت سنة 1885م وَكَانَ عمر الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور ثَمَانِي سنوات. والأرجح أَن مترجمنا لم يتطلع إِلَى هَذِه الآراء الإصلاحية بعد نظرا لصِغَر سنه.

أما الزِّيَارَة الثَّانِيَة لمفتي الديار المصرية فَكَانَت سنة 1903م/1321هـ وَكَانَ عمر الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور ثَلاث وَعشْرين سنة وَهُوَ يشغل خطة مدرس من الطَّبَقَة الثَّانِيَة وَقد نجح فِي هَذِه الخطة فِي نفس هَذِه السّنة.

فَهُوَ فِي مقتبل الْعُمر وَقد نَضِجَتْ أفكاره وتشبع وَقَرَأَ كثيرا من آرائه، وتشوفت نَفسه للقاء هَذَا المصلح الْكَبِير. وَتحقّق لَهُ ذَلِك فقد حل مُحَمَّد عَبده ضيفا بالمرسى عِنْد الْوَزير خَلِيل أَبُو حَاجِب بقصره الْمَعْرُوف. وَقد عقدت مجَالِس علمية بَين الشبخ مُحَمَّد عَبده وَبَين

مفكري الْبِلاد التونسيين. وَكَانَ الشَّيْخ الأُسْتَاذ ابْن عاشور لا يتَخَلَّف عَنْهَا وَكَانَ من بَين الَّذين تقدمُوا للأستاذ الإِمَام باقتراح يطْلبُونَ فِيهِ مِنْهُ بِأَن يلقِي درسا بالجمعية الخلدونية وَكَانَ عضوا بمجلسها الإداري،

وَقد كَانَ لَهُ ذَلِك وَأُلْقِي الدَّرْس فِي جُمَادَى الثَّانِيَة سنة 1321هـ/ سبتمبر 1903م.

وَلم يقْتَصر الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور على اجتماعه بمصلحي الشرق فَحسب بل اجْتمع بمفكري الْعَالم الغربي من ذَلِك اجتماعه بالمستشرق اوبنهايم الْمَعْرُوف بمناهجه الفلسفية والدينية ومقارنة الأَدْيَان والمذاهب وأصولها ومبادئها. وَله فِي هَذَا المجال بَاعَ وَلَقَد فاجئني فِي كِتَابه " أَلَيْسَ الصُّبْح بقريب " بإشاراته الباهرة إِلَى مفكري الغرب ونظرته لأفكارهم بِعَين النَّقْد، يوحي إِلَيْك من خلالها أَنه مُتَمَكن من اللُّغَة الفرنسية على أقل شَيْء.

**إصلاحاته ورؤيته للإصلاح:**

بَدَأَ الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بن عاشور بمساعدة ثلة من الأَنْصَار الأوفياء فِي تخطيط مراحل الإِصْلاح وتطبيق النّظم الَّتِي يَرَاهَا كفيلة بتحقيق الهدف الَّذِي يصبو إِلَيْهِ لِلْخُرُوجِ بِهَذَا المعهد الْعَظِيم من كبوته بعد أَن تكلم عَن أساليب التَّعْلِيم " الزيتوني " ومناهجه بِلِسَان النَّقْد فِي كِتَابه " أَلَيْسَ الصُّبْح بقريب " الَّذِي أَلفه سنة 1907م - 1321هـ وَالَّذِي ضمنه رُؤْيَته للإِصلاح وحدد فِيهِ أَسبَاب تخلف الْعُلُوم مصنفا كل علم على حِدة وَاعْتبر أَن إِصْلاح حَال الأمة لا يكون إِلا بإِصلاح مناهج التَّعْلِيم وَالْقِيَام على هَذَا الْجَانِب، كتب كِتَابه هَذَا وعمره لم يتَجَاوَز الْخَمْسَة وَعشْرين سنة مِمَّا يدل على أَن هَذَا الشَّيْخ الْجَلِيل كرس حَيَاته للنهوض بالجامع الأَعْظَم وبالتالي على مكمن الدَّاء فِي تخلف الأمة، وَلَئِن أحس الشَّيْخ بجسامة المهمة والبون الشاسع بَين

وَاقع الْمُسلمين وَمَا وصلت إِلَيْهِ الأُمَم الغربية من امتلاك أَسبَاب النهضة والرقي إلا أَنه لم يدّخر جهدا وَلم يثن عزما فِي السّير فِي هَذَا الطَّرِيق المليء بالأشواك.

لقد شملت عناية الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور إصْلاح الْكتب الدراسية وأساليب التدريس ومعاهد التَّعْلِيم. وَقد اهتمت لجان من شُيُوخ الزيتونة بتشجيع مِنْهُ بِهَذَا الْغَرَض. وَنظرت فِي الْكتب الدراسية على مُخْتَلف مستوياتها وَعمل الشَّيْخ على استبدال كتب كَثِيرَة كَانَت مُنْذُ عصور مَاضِيَة تدرّس وصبغ عَلَيْهَا قدم الزَّمَان صبغة احترام وقداسة موهومة.

لقد حرص الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور على خاصتي التَّعْلِيم الزيتوني: الصبغة الشَّرْعِيَّة واللغة الْعَرَبيَّة وللوصول إِلَى هَذَا الهدف لابد من تَخْصِيص كتب دراسية شهد لَهَا الْعلمَاء بغزارة الْعلم وإحكام الصَّنْعَة وتنمية الملكات فِي التَّحْرِير ليتخرج من " الزيتونة " الْعَالم المقتدر على الْخَوْض فِيمَا درس من الْمسَائِل وتمحيصها ونقدها. ولتحقيق هَذِه الأهداف دَعَا الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور المدرسين إِلَى التقليل من الإِلْقَاء والإكثار من الأشغال التطبيقية. حَتَّى تتربى للطَّالِب ملكة بهَا يسْتَقلّ فِي الْفَهم. ويعول على نَفسه فِي التَّحْصِيل على ثقافته الْعَامَّة والخاصة. وَقد حث المدرسين على نقد الأساليب والمناهج الدراسية وَاخْتِيَار أحْسنهَا أثْنَاء الدَّرْس ومراعاة تربية الملكة، بدل شحن الْعقل بمعلومات كَثِيرَة قد لا يحسن الطَّالِب التَّصَرُّف فِيهَا. فَكَانَت دَعوته للإصلاح ذَات بعدِي التنظير والتطبيق الميداني [1].

(1) مُحَمَّد الْعَزِيز بْن عاشور ، جَامع الزيتونة المَعْلم وَرِجَاله، ص، 125، مقدمة كتاب التفسير " التحرير والتنوير " لمحمد الطاهر بن عاشور، ص125.

**تطور الْعُلُوم:**

يَقُول الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بن عاشور فِي كِتَابه " أَلَيْسَ الصُّبْح بقريب " - إِيذَانًا مِنْهُ بِقرب النَّصْر واستعادة الأمة مجدها وتخلصها من المستعمر الفرنسي الَّذِي باغتها فِي عقر دارها - : " رَأَيْت الَّذِي يطْمع فِي الْبَحْث عَن مُوجبَات تدلي الْعُلُوم يَرْمِي بِنَفسِهِ إِلَى متسع رُبمَا لا يجد مِنْهُ مخرجا فِي أمد غَيره طَوِيل، وأيقنت أَن لأسباب تَأَخّر الْمُسلمين عُمُوما رابطة وَثِيقَة بِأَسْبَاب تَأَخّر الْعُلُوم ". أحس الشَّيْخ ابْن عاشور بِقِيمَة الْعلم فِي سَبِيل نهوض الأمة وحاول من خلال كِتَابه الْمَذْكُور أَن يقدم بديلا لما سَاد فِي أوساط الْجَامِع الْمَعْمُور من مناهج لتدريس الطّلبَة الْعُلُوم الشَّرْعِيَّة الَّتِي توارثها الأجيال أَبَا عَن جد دون نظر وإعمال للرأي ومكنت الغرب بالتالي من استحكام سيطرته على الْعَالم الإِسلامي والقطر التّونسِيّ جُزْء مِنْهُ.

وَقبل أَن يسْرد سببين رئيسيين لتأخر الْعُلُوم وَيزِيد عَلَيْهِمَا خَمْسَة عشر سَببا فرعيا، قدم نظرته إِلَى الْعُلُوم ورسم منهجه فِي التَّعَامُل مَعَ الْعلم وأطواره، فقسم الْعُلُوم قسمَيْنِ من جِهَة ثَمَرَتهَا:

1 - مَا تنشأ عَنْهَا ثَمَرَة هِيَ من نوع مَوْضُوعَات مسَائِله، كعلم النَّحْو فثمرته تجتنى مِنْهُ وَهِي ثَمَرَة لفظية مَحْضَة.

2 - مَا يبْحَث عَن أَشْيَاء لا لذاتها بل لاستنتاج نتائج عَنْهَا مثل علم التَّارِيخ والفلسفة والهندسة النظرية وأصول الْفِقْه وَغَيرهَا، فبالتاريخ يَسْتَعِين مزاول ة على عقل التجارب وتجنب مضار الحضارات والأخطاء الَّتِي وَقعت فِيهَا الأُمَم السَّابِقَة، والفلسفة تنير الْعقل وتدربه على فتح أَبْوَاب الْحَقَائِق وهاته الأَشْيَاء لا تقْرَأ فِي الفلسفة وَإِنَّمَا يتعودها الذِّهْن فِي ضمن ممارساته وَمثل ذَلِك علم البلاغة وَجَمِيع الْعُلُوم البرهانية النظرية، وأصول الْفِقْه فِي فلسفة الاستنباط.

يضيف فِي كِتَابه " أَلَيْسَ الصُّبْح بقريب " ليقول كَلمته الحاسمة فِي التَّعَامُل مَعَ الْعُلُوم بمنطق النَّقْد والتطوير دون الْخُرُوج عَن أدب الالْتِزَام بمناهج القدماء من سلف الأمة، فَيَقُول: " وَإِن أطوار الْعُلُوم فِي الأمة تشبه أطوارها فِي الأَفْرَاد ذَلِك أَن الْعلم فِي الأمة كَمَا هُوَ فِي الْفَرد لَهُ أَرْبَعَة أطوار:

1 - طور الْحِفْظ والتقليد وَالْقَبُول للمسائل كَمَا هِيَ من غير انتساب بَعْضهَا من بعض وَلا تفكر فِي غايتها بل لقصد الْعَمَل.

2 - طور انتساب بَعْضهَا من بعض وتنويعها وَالانْتِفَاع بِبَعْضِهَا فِي بعض.

3 - طور الْبَحْث فِي عللها وأسرارها وغاياتها.

4 - الحكم عَلَيْهَا بِاعْتِبَار تِلْكَ الْعِلَل بالتصحيح والنقد وَهُوَ طور التضلع والتحرير.

**المسيرة النضالية:**

عُزز موقف الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بن عاشور بتسميته شَيخا لِلإِسْلامِ الْمَالِكِي سنة 1932م ثمَّ بتكليفه فِي شهر سبتمبر من نفس السّنة 1932م بمهام شيخ مدير الْجَامِع الأَعْظَم وفروعه فتيسر لَهُ الشُّرُوع فِي تطبيق آرائه الإصلاحية الَّتِي كَانَت شغله الشاغل إلا أَن الدسائس والمؤامرات الَّتِي كَانَت تحاك ضِدّه من طرف معارضيه " الزيتونيين " من المتحفظين على خطواته الإصلاحية من جِهَة وأعدائه وخصومه السياسيين " زعماء الحزب الْحر الدستوري الْجَدِيد " الَّذين شعروا بنفوذه وقبوله من طرف كل المحيطين بِهِ والدور الَّذِي يُمكن أَن يلعبه فِي سحب الْبسَاط من تَحت أَرجُلهم من جِهَة ثَانِيَة جعلته يقدم استقالته فِي سبتمبر السّنة الموالية 1933م. وَفِي سنة 1364هـ - 1945م عيّن مرّة ثَانِيَة شَيخا للجامع الأَعْظَم وفروعه وقوبلت عودة الشَّيْخ بحماس فياض من طرف الأوساط الزيتونية

والرأي التّونسِيّ بِصفة عَامَّة واهتز المعهد الزيتوني وفروعه سُرُورًا فانتظمت عدَّة تظاهرات تكريما وارتياحا لعودة الشَّيْخ بالعاصمة وَمِنْهَا الاسْتِقْبَال الْحَار الَّذِي خصته بِهِ فروع سوسة والقيروان وصفاقس بمناسبة الزِّيَارَة التفقدية الَّتِي قَامَ بهَا الشَّيْخ ابْن عاشور فِي ماي 1945م فَور تَسْمِيَته من جَدِيد على رَأس إدارة التَّعْلِيم الزيتوني فَانْطَلَقت أَلْسِنَة الأدباء وَالشعرَاء بالقصائد الحماسية والأناشيد.

واستأنف الشَّيْخ تطبيق برنامجه الإصلاحي فَجعل الْفُرُوع الزيتونية تَحت مراقبة إدارة مشيخة الْجَامِع رَأْسا بَعْدَمَا كَانَت ترجع شؤونها بِالنّظرِ إِلَى السلط الشَّرْعِيَّة الجهوية. كَمَا زَاد الشَّيْخ ابْن عاشور فِي عدد الْفُرُوع الزيتونية الَّذِي ارْتقى فِي مُدَّة سبع سنوات (1949 - 1956م) من ثَمَانِيَة إِلَى خمس وَعشْرين (مِنْهَا اثْنَان للفتيات فِي تونس وصفاقس) وَصَارَ عدد تلامذة الزيتونة وفروعها يناهز الْعشْرين ألف تلميذ فِي حُدُود 1956م.

كَمَا امتدت شبكة فروع الزيتونة إِلَى الْقطر الجزائري بإنشاء فرعين فِي مَدِينَة قسنطينة.

وحرص الشَّيْخ ابْن عاشور على أَن يحسن من أوضاع الطّلبَة المعيشية والاجتماعية لَهُم لما لَهُ قيمَة فِي رفع معنويات الطّلبَة الزيتونيين إزاء إخْوَانهمْ الميسرين، وأمام الضغوط من حَولهمْ على الْقَضَاء على التَّعْلِيم الزيتوني والحيرة الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا أغلب أَبنَاء الزيتونة والآفاق الَّتِي يُمكن أَن يرسموها لمستقبلهم، فأنشئت مطابخ بِبَعْض الْمدَارِس مكنت الطّلبَة من تنَاول الطَّعَام ثَلاث مَرَّات فِي الْيَوْم بأسعار زهيدة. إلا أَن ذَلِك لم يكن شَيْئا يذكر أَمَام البنايات الْقَدِيمَة وَضعف مَالِيَّة إدارة المشيخة وَهِي حَقِيقَة عاشها كل الزيتونيين.

تجدر الإِشَارَة إِلَى أَن سلطات الحماية حاولت تَعْطِيل إنجاز برنامج الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور بطرق متنوعة مِنْهَا مقاومة إِنْشَاء الْفُرُوع... وَقد زَاد تفاقم الْوَضع الظروف السياسية فِي الْبِلاد وانعكاسها على الأوساط الزيتونية انعكاسا تسبب فِي اضْطِرَاب دَاخل الْجَامِع. وبسبب تمسك الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور بمبدأ عدم الاستجابة لرغبة الأَحْزَاب السياسية فَاشْتَدَّ الْخلاف بَينه وَبَين الوزارة فِي سنة 1950م، خُصُوصا إِثْر رفض الشَّيْخ بْن عاشور لطلب تِلْكَ الوزارة بطرد بعض الطّلبَة أَعْضَاء صَوت الطَّالِب الزيتوني المناهض للحزب. وَقد قررت السلطة إبعاد الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور عَن مُبَاشرَة وظيفته مَعَ إبقائه فِي خطته وتكليف كاهيته الشَّيْخ عَليّ النيفر بإدارة المشيخة. وَفِي سنة 1956م عَاد الشَّيْخ ابْن عاشور إِلَى مُبَاشرَة شؤون التَّعْلِيم الزيتوني بعنوان شيخ عميد للجامعة الزيتونية من سنة 1956 إِلَى 1960م تَارِيخ الْقَضَاء على الزيتونة والتعليم الزيتوني.

**كتاباته ومؤلفاته:**

كَانَ أول من حَاضر بِالْعَرَبِيَّةِ بتونس فِي هَذَا الْقرن، أما كتبه ومؤلفاته فقد وصلت إِلَى الأَرْبَعين هِيَ غَايَة فِي الدقة العلمية. وتدل على تبحر الشَّيْخ فِي شَتَّى الْعُلُوم الشَّرْعِيَّة وَالأَدب. وَمن أجلّها كِتَابه فِي التَّفْسِير " التَّحْرِير والتنوير " مَوْضُوع بحثنا. وَكتابه الثمين والفريد من نَوعه " فِي مَقَاصِد الشَّرِيعَة الإسلامية "، وَكتابه حَاشِيَة التَّنْقِيح للقرافي، و " أصُول الْعلم الاجتماعي فِي الإسلام "، وَالْوَقْف وآثاره فِي الإسلام، وَنقد علمي لكتاب أصُول الحكم، وكشف المعطر فِي أَحَادِيث الْمُوَطَّأ، والتوضيح والتصحيح فِي أصُول الْفِقْه، وموجز البلاغة، وَكتاب الإنْشَاء والخطابة، شرح ديوَان بشار وديوان النَّابِغَة...إِلَخ.

وَلا تزَال العديد من مؤلفات الشَّيْخ مخطوطة مِنْهَا: مَجْمُوع الْفَتَاوَى، وَكتاب فِي السِّيرَة، ورسائل فقهية كَثِيرَة.

وَقد قسمت مؤلفاته إِلَى قسمَيْنِ مِنْهَا مؤلفات فِي الْعُلُوم الإسلامية، وَأُخْرَى فِي الْعَرَبيَّة وآدابها:

**الْعُلُوم الإسلامية:**

1 - التَّحْرِير والتنوير

2 - مَقَاصِد الشَّرِيعَة الإسلامية

3 - أصُول النظام الاجتماعي فِي الإسلام

4 - أَلَيْسَ الصُّبْح بقريب

5 - الْوَقْف وآثاره فِي الإسلام

6 - كشف الْمُعْطى من الْمعَانِي والألفاظ الْوَاقِعَة فِي الْمُوَطَّأ

7 - قصَّة المولد

8 - حَوَاشِي على التَّنْقِيح لشهاب الدَّين الْقَرَافِيّ فِي أصُول الْفِقْه

9 - رد على كتاب الإسلام وأصول الحكم تأليف على عبد الرازق

10 - فَتَاوَى ورسائل فقهية

11 - التَّوْضِيح والتصحيح فِي أصُول الْفِقْه

12 - النّظر الفسيح عِنْد مضايق الأنظار فِي الْجَامِع الصَّحِيح

13 - تَعْلِيق وَتَحْقِيق على شرح حَدِيث أم زرع

14 - قضايا شَرْعِيَّة وَأَحْكَام فقهية وآراء اجتهادية ومسائل علمية

15 - آمال على مُخْتَصر خَلِيل

16 - تعاليق على العلول وحاشية السياكوتي

17 - آمال على دَلائِل الإعجاز

18 - أصُول التَّقَدُّم فِي الإسلام

19 - مراجعات تتَعَلَّق بكتابي: معجز أَحْمد واللامع للعزيزي

**اللُّغَة الْعَرَبيَّة وآدابها:**

1 - أصُول الإنْشَاء والخطابة

2 - موجز البلاغة

3 - شرح قصيدة الأَعْشَى

4 - تَحْقِيق ديوَان بشار

5 - الْوَاضِح فِي مشكلات المتنبي

6 - سرقات المتنبي

7 - شرح ديوَان الحماسة لأبي تَمام

8 - تَحْقِيق فَوَائِد العقيان لِلْفَتْحِ ابْن خاقَان مَعَ شرح ابْن زاكور

9 - ديوَان النَّابِغَة الذَّهَبِيّ

10 - تَحْقِيق " مُقَدّمَة فِي النَّحْو " لخلف الأَحْمَر

11 - تراجم لبَعض الأَعْلام

12 - تَحْقِيق كتاب " الاقتضاب " للبطليوسي مَعَ شرح كتاب أدب الْكَاتِب

13 - جمع وَشرح ديوَان سحيم

14 - شرح معلقَة امْرِئ الْقَيْس

15 - تَحْقِيق لشرح الْقرشِي على ديوَان المتنبي

16 - غرائب الاسْتِعْمَال

17 - تَصْحِيح وَتَعْلِيق على كتاب " الانتصار " لِجَالِينُوسَ للحكيم ابْن زهر.

وَقد عدد الدكتور مُحَمَّد الحبيب بن الخوجة المجلات العلمية الَّتِي أسْهم فِيهَا الشَّيْخ مُحَمَّد الطَّاهِر بْن عاشور، نذْكر مِنْهَا:

- السَّعَادَة الْعُظْمَى
- الْمجلة الزيتونية

وَمن الصُّحُف والمجلات الشرقية:

- هدى الإسلام
- نور الإسلام
- مِصْبَاح الشرق
- مجلة الْمنَار
- مجلة الْهِدَايَة الإسلامية
- مجلة مجمع اللُّغَة الْعَرَبيَّة بِالْقَاهِرَةِ
- مجلة الْمجمع العلمي بِدِمَشْق.

وَقد شغل مهمة عُضْو مراسل لمجمعي اللُّغَة الْعَرَبيَّة بِالْقَاهِرَةِ ودمشق مُنْذُ سنة 1955م [1].

**مَقَاصِد الشَّرِيعَة:**

كَانَ الطَّاهِر بن عاشور فَقِيها مجددا، يرفض مَا يردده بعض أدعياء الْفِقْه من أَن بَاب الاجْتِهَاد قد أغلق فِي أعقاب الْقرن الْخَامِس الهجري، وَلا سَبِيل لفتحه مرّة ثَانِيَة، وَكَانَ يرى أَن ارتهان الْمُسلمين لهَذِهِ النظرة الجامدة المقلدة سَيُصِيبُهُمْ بالتكاسل وسيعطل إِعْمَال الْعقل لإيجاد الْحُلُول لقضاياهم الَّتِي تَجِد فِي حياتهم.

وَإِذا كَانَ علم أصُول الْفِقْه هُوَ الْمنْهَج الضَّابِط لعملية الاجْتِهَاد فِي فهم نُصُوص الْقُرْآن الْكَرِيم واستنباط الأَحْكَام مِنْهُ فَإِن الاختلال فِي هَذَا الْعلم هُوَ السَّبَب فِي تخلي الْعلمَاء عَن الاجْتِهَاد. وَرَأى أَن هَذَا الاختلال يرجع إِلَى توسيع الْعلم بِإِدْخَال مَا لا يحْتَاج إِلَيْهِ الْمُجْتَهد، وَأَن

(1) مُحَمَّد الْعَزِيز ابْن عاشور ، جَامع الزيتونة المَعْلم وَرِجَاله، ص، 115، مقدمة كتاب التفسير " التحرير والتنوير " لمحمد الطاهر بن عاشور 125.

قَوَاعِد الأُصُول دونت بعد أَن دون الْفِقْه، لذَلِك كَانَ هُنَاكَ بعض التَّعَارُض بَين الْقَوَاعِد وَالْفُرُوع فِي الْفِقْه، كَذَلِك الْغَفْلَة عَن مَقَاصِد الشَّرِيعَة؛ إِذْ لم يدون مِنْهَا إِلا الْقَلِيل، وَكَانَ الأولى أَن تكون الأَصْل الأول لِلأُصُولِ لأَن بهَا يرْتَفع خلاف كَبِير.

وَيعْتَبر كتاب " مَقَاصِد الشَّرِيعَة " من أفضل مَا كتب فِي هَذَا الْفَنّ وضوحا فِي الْفِكر ودقة فِي التَّعْبِير وسلامة فِي الْمنْهَج واستقصاء للموضوع.

**محنة التَّجْنِيس:**

لم يكن الطَّاهِر بن عاشور بَعيدا عَن سِهَام الاستعمار والحاقدين عَلَيْهِ والمخالفين لمنهجه الإصلاحي التجديدي، فتعرض الشَّيْخ لمحنة قاسية استمرت 3 عُقُود عرفت بمحنة التَّجْنِيس، وملخصها أَن الاستعمار الفرنسي أصدر قانونا فِي (شَوَّال 1328 هـ = 1910م) عرف بقانون التَّجْنِيس، يتيح لمن يرغب من التونسيين التجنس بالجنسية الفرنسية؛ فتصدى الوطنيون التونسيون لهَذَا القانون وَمنعُوا المتجنسين من الدّفن فِي الْمَقَابِر الإسلامية؛ مِمَّا أربك الفرنسيين فلجأت السلطات الفرنسية إِلَى الْحِيلَة لاستصدار فَتْوَى تضمن للمتجنسين التَّوْبَة من خلال صِيغَة سُؤال عَامَّة لا تتَعَلَّق بالحالة التونسية توجه إِلَى الْمجْلس الشَّرْعِيّ.

وَكَانَ الطَّاهِر يتَوَلَّى فِي ذَلِك الْوَقْت سنة ( 1352 هـ = 1933م) رئاسة الْمجْلس الشَّرْعِيّ لعلماء الْمَالِكِيَّة فَأفْتى الْمجْلس صَرَاحَة بِأَنَّهُ يتَعَيَّن على المتجنس عِنْد حُضُوره لَدَى القَاضِي أَن ينْطق بِالشَّهَادَتَيْنِ ويتخلى فِي نفس الْوَقْت عَن جنسيته الَّتِي اعتنقها، لَكِن الاستعمار حجب هَذِه الْفَتْوَى، وبدأت حَملَة لتلويث سمعة هَذَا الْعَالم الْجَلِيل، وتكررت هَذِه الحملة الآثمة عدَّة مَرَّات على الشَّيْخ، وَهُوَ صابر محتسب.

**صدق الله وَكذب بورقيبة:**

وَمن المواقف الْمَشْهُورَة للطاهر بن عاشور رفضه الْقَاطِع استصدار فَتْوَى تبيح الْفطر فِي رَمَضَان، وَكَانَ ذَلِك عَام (1381 هـ = 1961م) عِنْدَمَا دَعَا " الحبيبُ بورقيبة " الرئيسُ التّونسِيّ السَّابِق العمالَ إِلَى الْفطر فِي رَمَضَان بِدَعْوَى زِيَادَة الإنتاج، وَطلب من الشَّيْخ أَن يُفْتِي فِي الإذاعة بِمَا يُوَافق هَذَا، لَكِن الشَّيْخ صرح فِي الإذاعة بِمَا يُرِيدهُ الله تَعَالَى، بعد أَن قَرَأَ آيَة الصّيام، وَقَالَ بعْدهَا: " صدق الله وَكذب بورقيبة "، فخمد هَذَا التطاول المقيت وَهَذِه الدعْوَة الْبَاطِلَة بِفضل مقولة ابْن عاشور.

**وَفَاته:**

وَقد توفّي الطَّاهِر بن عاشور فِي ( 13 رَجَب 1393 هـ = 12 أغسطس 1973م) بعد حَيَاة حافلة بِالْعلمِ والإصلاح والتجديد على مستوى تونس والعالم الإسلامي [1].

**التحرير والتنوير:**

وَتَفْسِيره الْمُسَمّى بالتحرير والتنوير اسْمه الأَصْلِيّ: " تَحْرِير الْمَعْنى السديد وتنوير الْعقل الْجَدِيد وَتَفْسِير الْكتاب الْمجِيد ".

وَالْكتاب لَهُ طبعتان: طبعة على هَيْئَة أَجزَاء مُتَفَرِّقَة نشرتها الدَّار التونسية للنشر، وطبعة فِي خمس مجلدات، وطبعة قديمَة سنة 1384هـ بمطبعة عِيسَى البابي الْحلَبِي لم أَقف مِنْهَا على غير الْجُزْء الأول فَقَط.

قدم لَهُ الْمُؤلف بتمهيد واف ذكر فِيهِ مُرَاده من هَذَا التَّفْسِير وَقَالَ: فَجعلت حَقًّا عَليّ أَن أبدي فِي تَفْسِير الْقُرْآن نكتا لم أر من سبقني

(1) مُحَمَّد الْعَزِيز ابْن عاشور ، جَامع الزيتونة المَعْلم وَرِجَاله، ص، 115، مقدمة كتاب التفسير " التحرير والتنوير " لمحمد الطاهر بن عاشور 125.

إِلَيْهَا، وَأَن أَقف موقف الحكم بَين طوائف الْمُفَسّرين تَارَة لَهَا وآونة عَلَيْهَا، فَإِن الاقْتِصَار على الحَدِيث الْمعَاد، تَعْطِيل لفيض الْقُرْآن الَّذِي مَاله من نفاد، وَلَقَد رَأَيْت النَّاس حول كَلام الأقدمين أحد رجلَيْنِ: رجل معتكف فِيمَا شاده الأقدمون، وَآخر آخذ بمعوله فِي هدم مَا مَضَت عَلَيْهِ الْقُرُون وَفِي تِلْكَ الْحَالَتَيْنِ ضرّ كثير، وهنالك حَالَة أُخْرَى ينجبر بهَا الْجنَاح الكسير، وَهِي أَن نعمد إِلَى مَا أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده وحاشا أَن ننقضه أَو نبيده، علما بِأَن غمص فَضلهمْ كفران للنعمة، وَجحد مزايا سلفها لَيْسَ من حميد خِصَال الأمة.

وَقد ذكر فِيهَا أهم التفاسير فِي نظره فبدأها بتفسير الْكَشَّاف ثمَّ الْمُحَرر الْوَجِيز ثمَّ مَفَاتِيح الْغَيْب وَتَفْسِير الْبَيْضَاوِيّ والآلوسي وَذكر بعض الْحَوَاشِي على الْكَشَّاف والبيضاوي وَتَفْسِير أبي السُّعُود والقرطبي وَتَقْيِيد الأبي على ابْن عَرَفَة وَتَفْسِير ابْن جرير ودرة التَّنْزِيل. ثمَّ قَالَ: ولقصد الاخْتِصَار أعرض عَن الْعزو إِلَيْهَا.

فَكَأَنَّهَا مراجعه الأساسية.

وَلَقَد أخر مَا حَقه التَّقْدِيم فَجعل أَولهَا كتاب الْكَشَّاف المعتزلي وَجعل فِي آخرهَا كتاب ابْن جرير أعظم الْمُفَسّرين وعمدة السَّابِقين واللاحقين مِمَّا يُعْطي الانطباع بِأَن مَنْهَج الشَّيْخ عقلاني أَكثر مِنْهُ أثري.

ثمَّ قَالَ: وَقد ميزت مَا يفتح الله لي من فهم فِي مَعَاني كِتَابه وَمَا أجلبه من الْمسَائِل العلمية مِمَّا لا يذكرهُ الْمُفَسِّرُونَ.

كَمَا وضح أَن فن البلاغة لم يَخُصُّهُ أحد من الْمُفَسّرين بِكِتَاب كَمَا خصوا أفانين الْقُرْآن الأُخْرَى وَمن أجل ذَلِك الْتزم أَن لا يغْفل التَّنْبِيه على مَا يلوح لَهُ مِنْهُ كلما ألهمه.

وأخيرًا فَهُوَ يمتدح كِتَابه بقوله: فَفِيهِ أحسن مَا فِي التفاسير، وَفِيه أحسن مِمَّا فِي التفاسير.

وَقد أتبع كَلامه عَن تَفْسِيره بِعشر مُقَدمَات:

الأولى: فِي التَّفْسِير والتأويل وَتعرض فِيهِ لبَيَان أَن التَّفْسِير لَيْسَ علما إلا على وَجه التسامح وناقش ذَلِك بمقدمات منطقية ترسم أبعادًا لمنهجه العقلاني الَّذِي يَتَّضِح من خلال مطالعة تَفْسِيره شَيْئا فَشَيْئًا.

وَقد أثنى فِي تِلْكَ الْمُقدمَة على تفسيري الْكَشَّاف وَابْن عَطِيَّة وَقَالَ: وَكِلاهُمَا عضادتا الْبَاب ومرجع من بعدهمَا من أولي الأَلْبَاب.

وسوف يَأْتِي ذكر بَقِيَّة الْمُقدمَات فِي غُضُون كلامنا عَن الْمنْهَج التفصيلي.

**الْمنْهَج الْعَام للتفسير:**

وَتَفْسِير التَّحْرِير والتنوير بعتير فِي الْجُمْلَة تَفْسِيرا بلاغيا بَيَانا لغويا عقلانيا لا يغْفل الْمَأْثُور ويهتم بالقراءات. وَطَرِيقَة مُؤَلفه فِيهِ أَن يذكر مقطعا من السُّورَة ثمَّ بشرع فِي تَفْسِيره مبتدئا بِذكر الْمُنَاسبَة ثمَّ لغويات المقطع ثمَّ التَّفْسِير الإجمالي ويتعرض فِيهِ للقراءات والفقهيات وَغَيرهَا.

وَهُوَ يقدم عرضا تفصيليا لما فِي السُّورَة ويتحدث عَن ارتباط آياتها[1].

**الْمنْهَج التفصيلي للمؤلف:**

أَولا: أَسمَاء السُّور وَعدد الآيَات وَالْوُقُوف وَبَيَان المناسبات:

لقد أفرد ابْن عاشور الْمُقدمَة الثَّامِنَة من مقدماته وَجعلهَا فِي اسْم الْقُرْآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها.

ثمَّ هُوَ يتَعَرَّض أثْنَاء التَّفْسِير لأسماء السُّور وَمن ذَلِك فِي سُورَة الْفَاتِحَة إِذْ يَقُول: سُورَة الْفَاتِحَة من السُّور ذَات الأَسْمَاء الْكَثِيرَة. أنهاها

(1) المهدي بن حميدة، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رائد الفكر الإسلامي بتصرف، مُحَمَّد الْعَزِيز ابْن عاشور ، جَامع الزيتونة المَعْلم وَرِجَاله، ص، 115، مقدمة كتاب التفسير " التحرير والتنوير " لمحمد الطاهر بن عاشور.

صَاحب الإتقان إِلَى نَيف وَعشْرين بَين ألقاب وصفات وَجَرت على أَلْسِنَة الْقُرَّاء من عهد السّلف، وَلم يثبت فِي السّنة الصَّحِيحَة والمأثور من أسمائها إِلا فَاتِحَة الْكتاب، والسبع المثاني، وَأم الْقُرْآن، أَو أم الْكتاب، فلنقتصر على بَيَان هَذِه الأَسْمَاء الثَّلاثَة.

وَمِمَّا قَالَه فِي تَقْدِيمه لكتابه: واهتممت أَيْضا بِبَيَان تناسب اتِّصَال الآي بَعْضهَا بِبَعْض وَبَين أَن الْبَحْث عَن تناسب مواقع السُّور لَيْسَ حَقًّا على الْمُفَسّر.

ويتعرض لمكية السُّور ومدنيتها وترتيب نُزُولهَا كَمَا فِي الْفَاتِحَة وَالْبَقَرَة وَغَيرهمَا. وَفِي تَرْتِيب النُّزُول جَاءَ قَوْله:

تحير الْمُفَسِّرُونَ فِي مَحل هاته الْحُرُوف الْوَاقِعَة فِي أول هاته السُّور، وَفِي فواتح سور أُخْرَى عدَّة جَمِيعهَا تسع وَعِشْرُونَ سُورَة ومعظمها فِي السُّور المكية، وَكَانَ بَعْضهَا فِي ثَانِي سُورَة نزلت وهى:{نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ} [القلم: ١]، وأخلق بهَا أَن تكون مثار حيرة ومصدر أَقْوَال مُتعَدِّدَة وأبحاث كَثِيرَة.

وَعند النّظر لأوّل وهلة يتَبَيَّن أَن تَحْدِيد المُصَنّف لتِلْك السُّورَة بِأَنَّهَا ثَانِي سُورَة نزلت لَيْسَ بِصَحِيح فَإِن أولى السُّور نزولا هِيَ العلق ثمَّ التحرير والتنوير المدثر وَالْخلاف مَحْصُور فيهمَا مَعَ الْفَاتِحَة، فسورة ن هِيَ الرَّابِعَة على أقل تَقْدِير. وَهُوَ يتَعَرَّض لعد الآي وَمن ذَلِك قَوْله فِي سُورَة الْبَقَرَة: وَعدد آيها مِائَتَان وَخمْس وَثَمَانُونَ آيَة عِنْد أهل الْعدَد بِالْمَدِينَةِ وَمَكَّة وَالشَّام، وست وَثَمَانُونَ عِنْد أهل الْعدَد بِالْكُوفَةِ، وَسبع وَثَمَانُونَ عِنْد أهل الْعدَد بِالْبَصْرَةِ.

وَقد تعرض للْخلاف فِي عد الفواتح.

**موقفه من العقيدة:**

وَهُوَ فِي العقيدة يسْلك مَسْلَك المؤولة:

يَقُول: فوصف الله تَعَالَى بِصِفَات الرَّحْمَة فِي اللُّغَات نَاشِئ على مِقْدَار عقائد أَهلهَا فِي مَا يجوز على الله ويستحيل، وَكَانَ أَكثر الأُمَم مجسمة، ثمَّ يَجِيء ذَلِك فِي لِسَان الشَّرَائِع تعبيرًا على الْمعَانِي الْعَالِيَة بأقصى مَا تسمح بِهِ اللُّغَات مَعَ اعْتِقَاد تَنْزِيه الله عَن أَعْرَاض الْمَخْلُوقَات بِالدَّلِيلِ الْعَام على التَّنْزِيه وَهُوَ مَضْمُون قَول الْقُرْآن :{لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ} [الشورى: ١١]، فَأهل الإيمَان إِذا سمعُوا أَو أطْلقُوا وصفي: الرَّحْمَن الرَّحِيم؛ لا يفهمون مِنْهُ حُصُول ذَلِك الانفعال الملحوظ فِي حَقِيقَة الرَّحْمَة فِي مُتَعَارَف اللُّغَة الْعَرَبيَّة لسطوع أَدِلَّة تَنْزِيه الله تَعَالَى عَن الأَعْرَاض بل إِنَّه يُرَاد بِهَذَا الْوَصْف فِي جَانب الله تَعَالَى إِثْبَات الْغَرَض الأسمى من حَقِيقَة الرَّحْمَة وَهُوَ صُدُور آثَار الرَّحْمَة من الرِّفْق واللطف وَالإِحْسَان والإعانة لأَن ماعدا ذَلِك من الْقُيُود الملحوظة فِي مُسَمّى الرَّحْمَة فِي مُتَعَارَف النَّاس لا أهمية لَهُ، لَوْلا أَنه لا يُمكن بِدُونِهِ حُصُول آثاره فيهم أَلا ترى أَن الْمَرْء قد يرحم أحدا وَلا يملك لَهُ نفعا لعجز أَو نَحوه وَقد أَشَارَ إِلَى مَا قُلْنَاهُ أَبُو حَامِد الْغَزالِيّ فِي الْمَقْصد الأَسْنَى بقوله: الَّذِي يُرِيد قَضَاء حَاجَة الْمُحْتَاج وَلا يَقْضِيهَا فَإِن كَانَ قَادِرًا على قَضَائهَا لم يسم رحِيما إِذْ لَو تمت الإِرَادَة لوفى بهَا وَإِن كَانَ عَاجِزا فقد يُسمى رحِيما بِاعْتِبَار مَا اعْتَبرهُ من الرَّحْمَة والرقة وَلَكِن نَاقص.

وَبِهَذَا تعلم أَن إِطْلاق نَحْو هَذَا الْوَصْف على الله تَعَالَى لَيْسَ من الْمُتَشَابه لتبادر الْمَعْنى المُرَاد مِنْهُ بِكَثْرَة اسْتِعْمَاله وَتحقّق تنزه الله عَن لَوَازِم الْمَعْنى الْمَقْصُود فِي الْوَضع مِمَّا لا يَلِيق بِجلال الله، كَمَا نطلق الْعَلِيم على الله مَعَ التيقن بتجرد علمه عَن الْحَاجة إِلَى النّظر وَالاسْتِدْلال وَسبق الْجَهْل، وكما نطلق الْحَيّ عَلَيْهِ تَعَالَى مَعَ الْيَقِين بتجرد حَيَاته عَن

الْعَادة والتكون، ونطلق الْقُدْرَة مَعَ الْيَقِين بتجرد قدرته عَن المعالجة والاستعانة، فوصفه تَعَالَى بالرحمن الرَّحِيم من المنقولات الشَّرْعِيَّة فقد أثبت الْقُرْآن رَحْمَة الله فِي قَوْله :{وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } [الأعراف: ١٥٦]، فَهِيَ منقولة فِي لِسَان الشَّرْع إِلَى إِرَادَة الله إِيصَال الإِحْسَان إِلَى مخلوقاته فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا وغالب الأَسْمَاء الْحسنى من هَذَا الْقَبِيل.

وَيَقُول: وَإِذا كَانَت حَقِيقَة الْغَضَب يَسْتَحِيل اتصاف الله تَعَالَى بهَا، وإسنادها إِلَيْهِ على الْحَقِيقَة، للأدلة القطعية الدَّالَّة على تَنْزِيه الله تَعَالَى عَن التغيرات الذاتية والعرضية؛ فقد وَجب على الْمُؤمن صرف إِسْنَاد الْغَضَب إِلَى الله عَن مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيّ، وَطَرِيقَة أهل الْعلم وَالنَّظَر فِي هَذَا الصّرْف أَن يصرف اللَّفْظ إِلَى الْمجَاز بعلاقة اللُّزُوم أَو إِلَى الْكِنَايَة بِاللَّفْظِ عَن لازم مَعْنَاهُ، فَالَّذِي يكون صفة لله من معنى الْغَضَب هُوَ لازمه، أَعنِي: الْعقَاب والإهانة يَوْم الْجَزَاء واللعنة أَي الإبعاد عَن أهل الدَّين وَالصَّلاح فِي الدُّنْيَا أَو هُوَ من قبيل التمثيلية. وَكَانَ السّلف فِي الْقرن الأول ومنتصف الْقرن الثَّانِي يمسكون عَن تَأْوِيل هَذِه المتشابهات، لما رَأَوْا فِي ذَلِك الإمْسَاك من مصلحَة الاشْتِغَال بِإِقَامَة الأَعْمَال الَّتِي هِيَ مُرَاد الشَّرْع من النَّاس، فَلَمَّا نَشأ النّظر فِي الْعلم وطلبوا معرفَة حقائق الأَشْيَاء وَحدث قَول النَّاس فِي مَعَاني الدَّين بِمَا لا يلائم الْحق، لم يجد أهل الْعلم بَدًّ ا من توسيع أساليب التَّأْوِيل الصَّحِيح لإفهام الْمُسلم وكبت الملحد، فَقَامَ الدَّين بصنيعهم على قَوَاعِده، وتميز المخلص لَهُ عَن ماكره وجاحده، وكل فِيمَا صَنَعُوا على هدى. وَبعد الْبَيَان لا يرجع إِلَى الإِجْمَال أبدا، وَمَا تأولوه إِلا بِمَا هُوَ مَعْرُوف فِي لِسَان الْعَرَب مَفْهُوم لأَهله. فَغَضب الله تَعَالَى على الْعُمُوم يرجع إِلَى مُعَامَلَته الحائدين عَن هَدْيه العاصين لأوامره وَيَتَرَتَّب عَلَيْهِ الانتقام وَهُوَ مَرَاتِب أقصاها عِقَاب الْمُشْركين وَالْمُنَافِقِينَ بالخلود فِي الدَّرك الأَسْفَل من النَّار وَدون الْغَضَب الْكَرَاهِيَة. وَقد

يستطرد أَحْيَانًا فِي تِلْكَ القضايا الْمُتَعَلّقَة بِالصِّفَاتِ وَيَكْفِي الْقَارئ لمعْرِفَة مدى الاستطراد الَّذِي وَقع فِيهِ الْمُؤلف الْخَارِج عَن نطاق التَّفْسِير أَن يقْرَأ هَذِه الْفَقْرَة الَّتِي سَاقهَا ضمن كَلامه الطَّوِيل عَن الْحَمد: قَالَ:... وَمِنْه أَنه يكون ثَنَاء على الْجَمِيل الاخْتِيَارِيّ: وَبِهَذَا ينْدَفع الإشْكَال عَن حمدنا الله تَعَالَى على صِفَاته الذاتية كَالْعلمِ وَالْقُدْرَة دون صِفَات الأَفْعَال، وَإِن كَانَ اندفاعه على اخْتِيَار الْجُمْهُور أَيْضا ظَاهرا؛ فَإِن مَا ورد عَلَيْهِم من أَن مَذْهَبهم يسْتَلْزم أَن لا يحمد الله تَعَالَى على صِفَاته لأَنَّهَا ذاتية، فَلا تُوصَف بِالاخْتِيَارِ إِذْ الاخْتِيَار يسْتَلْزم إِمْكَان الاتصاف. وَقد أجابوا عَنهُ إِمَّا بِأَن تِلْكَ الصِّفَات الْعلية نزلت منزلَة الاختيارية لاستقلال موصوفها وَإِمَّا بِأَن ترَتّب الآثَار الاختيارية عَلَيْهَا يَجْعَلهَا كالاختيارية، وَإِمَّا بِأَن الْمُرَاد بالاختيارية أَن يكون الْمَحْمُود فَاعِلا بِالاخْتِيَارِ وَإِن لم يكن الْمَحْمُود عَلَيْهِ اختياريًا. وَعِنْدِي أَن الْجَواب أَن نقُول: إِن شَرط الاخْتِيَارِيّ فِي حَقِيقَة الْحَمد - عِنْد مثبته - لإِخْرَاج الصِّفَات غير الاختيارية، لأَن غير الاخْتِيَارِيّ فِينَا لَيْسَ من صِفَات الْكَمَال إِذْ لا تترتب عَلَيْهَا الآثَار الْمُوجبَة للحمد، فَكَانَ شَرط الاخْتِيَار فِي حمدنا زِيَادَة فِي تحقق كَمَال الْمَحْمُود، أما عدم الاخْتِيَار الْمُخْتَص بِالصِّفَاتِ الذاتية الإلهية فَإِنَّهُ لَيْسَ عبارَة عَن نقص فِي صِفَاته، وَلكنه كَمَال نَشأ من وجوب الصّفة للذات لقدم الصّفة فَعدم الاخْتِيَار فِي صِفَات الله تَعَالَى زِيَادَة فِي الْكَمَال لأَن أَمْثَال تِلْكَ الصِّفَات فِينَا لا تكون وَاجِبَة للذات مُلازمَة لَهَا، فَكَانَ عدم الاخْتِيَار فِي صِفَات الله تَعَالَى دَلِيلا على زِيَادَة الْكَمَال، وَفِينَا دَلِيلا على النَّقْص. وَمَا كَانَ نقصا فِينَا بِاعْتِبَار مَا، قد يكون كمالا لله تَعَالَى بِاعْتِبَار آخر، مثل عدم الْوَلَد، فَلا حَاجَة إِلَى الأَجْوِبَة المبنية على التَّنْزِيل إِمَّا بِاعْتِبَار الصّفة أَو بِاعْتِبَار الْمَوْصُوف، على أَن تَوْجِيه الثَّنَاء إِلَى الله تَعَالَى بمادة (حمد) هُوَ أَقْصَى مَا تسمى بِهِ اللُّغَة

الْمَوْضُوعَة لأَدَاء الْمعَانِي المتعارفة لَدَى أهل تِلْكَ اللُّغَة، فَلَمَّا طرأت عَلَيْهِم المدارك الْمُتَعَلّقَة بالحقائق الْعَالِيَة عبر لَهُم عَنْهَا بأقصى مَا يقربهَا من كَلامهم. وَيَقُول فِي خلق الأَفْعَال وَقَضِيَّة اللطف وَهُوَ كَلام يشم مِنْهُ رَائِحَة الاعتزال:

{فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا} [البقرة: ١٠]، وَإِنَّمَا أسندت زِيَادَة مرض قُلُوبهم إِلَى الله تَعَالَى مَعَ أَن زِيَادَة هاته الأَمْرَاض القلبية من ذَاتهَا، لأَن الله تَعَالَى لما خلق هَذَا التولد وأسبابه وَكَانَ أمره خفِيا، نبه النَّاس على خطر الاسترسال فِي النوايا الخبيثة والأعمال الْمُنكرَة، وَأَنه من شَأْنه أَن يزِيد تِلْكَ النوايا تمَكنا من الْقلب فيعسر أَو يتَعَذَّر الإقلاع عَنْهَا بعد تمكنها، وأسندت تِلْكَ الزِّيَادَة إِلَى اسْمه تَعَالَى لأَن الله غضب عَلَيْهِم فأهملهم وشأنهم وَلم يتداركهم بِلُطْفِهِ الَّذِي يوقظهم من غفلاتهم لينبه الْمُسلمين إِلَى خطر أمرهَا وَأَنَّهَا مِمَّا يعسر إقلاع أَصْحَابهَا عَنْهَا ليَكُون حذرهم من معاملتهم أَشد مَا يُمكن.

وَله كَلام جيد فِي تَقْدِير الْمَحْذُوف فِي لا إِلَه إِلا الله:

قَالَ: قد أفادت جملَة (لا إِلَه إِلا هُوَ) التَّوْحِيد لأَنَّهَا نفت حَقِيقَة الألوهية عَن غير الله تَعَالَى. وَخبر " لا " مَحْذُوف دلّ عَلَيْهِ مَا فِي " لا " من معنى النَّفْي لأَن كل سامع يعلم أَن المُرَاد نفي هَذِه الْحَقِيقَة فالتقدير لا إِلَه مَوْجُود إِلا هُوَ، وَقد عرضت حيرة للنحاة فِي تَقْدِير الْخَبَر فِي هاته الْكَلِمَة... إلخ كَمَا تعرض للْخلاف فِي مُسَمّى الإِيمَان فَأطَال فِيهِ إطالة خرجت عَن حد التَّفْسِير وتورط فِيهَا ورطة كَبِيرَة كَمَا سَيَأْتِي فِي نِهَايَة حديثنا عَن هَذَا التَّفْسِير.

وَله ردود ومناقشات مَعَ الْفرق وَمن ذَلِك:

حَملته فِي الْمُقدمَة الثَّالِثَة على تَفْسِير الباطنية وَقد عرج على التَّفْسِير الإشاري وخرجه تخريجًا يوحي بقبوله لَهُ وَقَالَ فِي بعض أنحائه: وَرَأَيْت الشَّيْخ محيي الدَّين يُسَمِّي هَذَا النَّوْع سَمَاعا وَلَقَد أبدع. وَقد تعرض للإباضية وَقَوْلهمْ فِي الإيمَان كَمَا تعرض لبَعض الخلافات بَين الأشاعرة والمعتزلة وَابْن عاشور يُؤْخَذ عَلَيْهِ أَنه ينْقل عَن أنَاس معروفين بالزيغ فِي بَاب الاعْتِقَاد فَهُوَ ينْقل عَن ابْن سينا وَأَمْثَاله إِذْ يَقُول بعد ذكر كَلَام للرازي:

قلت: وَلم يسم الإِمَام الْمرتبَة الثَّالِثَة باسم وَالظَّاهِر أَنَّهَا مُلْحقَة فِي الاسْم فِي الْمرتبَة الثَّالِثَة أَعنِي الْعُبُودِيَّة لأَن الشَّيْخ ابْن سينا قَالَ فِي الإشارات: الْعَارِف يُرِيد الْحق لا لشَيْء غَيره وَلا يُؤثر شَيْئا على عرفانه وتعبده لَهُ فَقَط لأَنَّهُ مُسْتَحقّ لِلْعِبَادَةِ وَلأَنَّهَا نِسْبَة شريفة إِلَيْهِ لا لرغبة أَو رهبة ا.هـ فجعلهما حَالَة وَاحِدَة. كَمَا ينْقل عَنهُ مرّة ثَانِيَة بعْدهَا بصفحة فَيَقُول:

وَأَقل مِنْهُ قَول الشَّيْخ ابْن سينا فِي الإشارات: لما لم يكن الإِنْسَان بِحَيْثُ يسْتَقلّ وَحده بِأَمْر نَفسه إِلا بمشاركة آخر من بني جنسه وبمعاوضة ومعارضة تجريان بَينهمَا يفرغ كل وَاحِدَة مِنْهُمَا لصَاحبه عَن مُهِمّ لَو تولاه لنَفسِهِ لازدحم على الْوَاحِد كثير وَكَانَ مِمَّا يتعسر إِن أمكن، وَجب أَن يكون بَين النَّاس مُعَاملَة وَعدل يحفظه شرع يفرضه شَارِع متميز بِاسْتِحْقَاق الطَّاعَة، وَوَجَب أَن يكون للمحسن والمسيء جَزَاء من عِنْد الْقَدِير الْخَبِير، فَوَجَبَ معرفَة الْمجَازِي والشارع، وَأَن يكون مَعَ الْمعرفَة سَبَب حَافظ للمعرفة فَفرضت عَلَيْهِم الْعِبَادَة المذكِّرة للمعبود، وكررت عَلَيْهِم ليستحفظ التَّذْكِير بالتكرير ا.هـ وَتقدم نَقله عَن ابْن عَرَبِيّ. كَمَا تأثر بِمن لَدَيْهِ انحراف فِي عقيدته وَنقل عَنهُ كثيرا

أَمْثَال الزَّمَخْشَرِيّ، وَهُوَ يثني على الْغَزالِيّ وينقل عَنهُ كثيرا أَيْضا [1].

وقد وجه لابن عاشور جملَة من الانتقادات منها:

أَولا: كونه ذُو ثِقَة زَائِدَة بِنَفسِهِ أوقعته فِي مزالق:

فَمن مَوَاقِف ثقته الزَّائِدَة بِنَفسِهِ وتفرده قَوْله:

وَالظَّاهِر أَن المُرَاد بالقبلة المنسوخة وَهِي اسْتِقْبَال بَيت الْمُقَدّس أَعنِي الشرق وَهِي قبْلَة الْيَهُود وَلم يشف أحد من الْمُفَسّرين وَأَسْبَاب النُّزُول الغليل فِي هَذَا على أَن الْمُنَاسبَة بَينهَا وَبَين الآي الَّذِي قبلهَا غير وَاضِحَة فَاحْتَاجَ بعض الْمُفَسّرين إِلَى تكلّف إبدائها.

وَقَوله: وَأَنا أَقُول كلمة أربأ بهَا عَن الانحياز إِلَى نصْرَة وَهِي أَن اخْتِلاف الْمُسلمين فِي أول خطوَات مَسِيرهمْ وَأول موقف من مَوَاقِف أنظارهم وَقد مَضَت عَلَيْهِ الأَيَّام بعد الأَيَّام وتعاقبت الأقوام يعد نقصا علميا لا ينبغى الْبَقَاء عَلَيْهِ. وَلا أعرفني بعد هَذَا الْيَوْم ملتفتا إِلَيْهِ.

ثمَّ وَقع فِي إِشْكَال كَبِير فِي مُسَمّى الإيمَان وَالإِسْلام خرج بِهِ عَن عقيدة أهل السّنة وَالْجَمَاعَة! والعجيب أَنه ظن أَنه استوفى الْمَسْأَلَة وَفصل فِيهَا وَهُوَ لم يستوعب عشر معشار أَدِلَّة أحد الْفَرِيقَيْنِ وَالْمقَام لا يحْتَمل سوق الأَدِلَّة والردود وَفِي نفس الْوَقْت خرج عَن حد التَّفْسِير فَلا هُوَ استوفى وَلا هُوَ رَاعى الْمَقْصد. كَذَلِك عدم اعْتِبَاره التَّفْسِير علما كَمَا ذكر فِي الْمُقدمَة، وعَلى الرغم من كَونه يعلم تَمامًا أَنه لم يسْبقهُ أحد لهَذَا الْفَهم وَأَنه تَحْصِيل حَاصِل ذهب إِلَيْهِ، وَكَانَ الأولى بِهِ أَن ينخرط فِي آلاف الْعلمَاء من جَمِيع عصور الإسلام الَّذين اعتبروا التَّفْسِير علما بل اعتبروه أجل الْعُلُوم.

(1) المهدي بن حميدة، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رائد الفكر الإسلامي بتصرف، مُحَمَّد الْعَزِيز ابْن عاشور، جَامع الزيتونة المَعْلم وَرِجَاله، ص، 115، مقدمة كتاب التفسير " التحرير والتنوير " لمحمد الطاهر بن عاشور 125.

وَكَذَا حَملته الشعواء على التَّفْسِير بالمأثور واستقلاله لَهُ واستخفافه بأَهْله، عَظِيمَة من العظائم، فبدون التَّفْسِير بالمأثور ضلت الأمة وَبِغير نوره زاغ الْمُفَسِّرُونَ، وَهُوَ نَفسه من الدَّلائِل على ذَلِك فَهُوَ على الرغم من استفادته مِنْهُ فِي كل تَفْسِيره إلا أَنه حاد عَنهُ فِي بعض الْمَوَاضِع فَوَقع فِيمَا وَقع فِيهِ.

وَانْظُر أَيْضا من مَوَاضِع مُخَالفَته بالمأثور وثقته الزَّائِدَة بِنَفسِهِ واستخدامه " لَعَلَّه " لغير حجَّة.

ثَانِيًا: صَاحب استطراد وتكلف خرج عَن حد التَّفْسِير جملَة وتفصيلا على الرغم من إهماله التَّفْسِير فِي مَوَاضِع لا يسْتَغْنى عَن تَفْسِيرهَا:

فَمَعَ اهتمامه بِإِثْبَات الْيَاء فِي دعان أَو عدم إِثْبَاتهَا أهمل تَفْسِير قَوْله تَعَالَى:{فَإِنِّي قَرِيبٌ } [البقرة: ١٨٦].

وَمن التكلفات الَّتِي دفع إِلَيْهَا الاستطراد قَوْله:

وَعِنْدِي أَن الْبَسْمَلَة كَانَ مَا يرادفها قد جرى على أَلْسِنَة الأَنْبِيَاء من عهد إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلام فقد حكى الله عَن إِبْرَاهِيم أَنه قَالَ لأَبِيهِ: { يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ} [مريم: ٤٥]، وَقَالَ: {سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا } [مريم: ٤٧]، وَمعنى الحفى قريب من الرَّحِيم وَحكي عَنهُ قَوْله :{وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ } [البقرة: ١٢٨].

وَقَوله: وَقَالَ الأُسْتَاذ مُحَمَّد عَبده: إِن النَّصَارَى كَانُوا يبتدئون أدعيتهم وَنَحْوهَا باسم الأَب وَالابْن وَالروح الْقُدس إِشَارَة إِلَى الأقانيم الثَّلاثَة عِنْدهم، فَجَاءَت فَاتِحَة كتاب الإسلام بِالرَّدِّ عَلَيْهِم موقظة لَهُم بِأَن الإِلَه الْوَاحِد وَإِن تعدّدت أ سماؤه فَإِنَّمَا هُوَ تعدد الأَوْصَاف دون تعدد المسميات، يَعْنِي فَهُوَ رد عَلَيْهِم بتغليظ وتبليد. وَإِذا صَحَّ أَن فواتح النَّصَارَى وأدعيتهم كَانَت تَشْمَل على ذَلِك إِذْ النَّاقِل أَمِين فَهِيَ نُكْتَة لَطِيفَة.

ثَالِثا: ذُو ولع شَدِيد بِالنَّقْدِ وَإِن كَانَ هُنَاكَ مندوحة لترك الانتقاد انتقاده لوجه فِي التَّفْسِير مَقْبُول عِنْد قَوْله تَعَالَى {فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا} [البقرة: ١٠]، قَالَ: قَالَ بعض الْمُفَسّرين: هِيَ دُعَاء عَلَيْهِم كَقَوْل جُبَير بن الأضبط:

تبَاعد عَنى فَقَالَ: إِذْ دَعوته أَمِين فَزَاد الله مَا بَيْننَا بعدا

قَالَ: وَهُوَ تَفْسِير غير حسن لأَنَّهُ خلاف الأَصْل فِي الْعَطف بِالْفَاءِ وَلأَن تصدى الْقُرْآن لشتمهم بذلك لَيْسَ من دأبه، وَلأَن الدُّعَاء عَلَيْهِم بِالزِّيَادَةِ تنَافِي مَا عهد من الدُّعَاء للضالين بالهداية فِي نَحْو " اللَّهُمَّ اهد قومى فَإِنَّهُم لا يعلمُونَ ". وَهَذَا لَيْسَ بِلازِم فقد قَالَ تَعَالَى :{قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾} [عبس: ١٧]، وَقَالَ :{ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ } [الأحزاب: ٦١]، وَقَالَ:{قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ } [التوبة: ٣٠]، غير ذَلِك.

وَقد كنت من المعجبين بِهَذَا الْكتاب وحرصت على اقتنائه بطبعته التونسية على الرغم من غلاء سعره جدا وَعدم اكتماله وَقتهَا وَذَلِكَ قبل أَكثر من سبع عشرَة سنة، إِلا أنني لمحت فِيهِ تِلْكَ السلبيات مِمَّا حدا بِي إِلَى الإطالة فِي بَيَانهَا.

وَالْكتاب فِي الْجُمْلَة كتاب جيد من حَيْثُ الإضافات العلمية الَّتِي أضافها وَقد كَانَ تحرر صَاحبه سِلاحا ذَا حَدَّيْنِ فَكَمَا أفادنا فِي مَوَاضِع كَثِيرَة، زلت قدمه فِي مَوَاضِع أَكثر والمعصوم من عصمه الله[1].

* * *

(1) المهدي بن حميدة، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رائد الفكر الإسلامي بتصرف، مُحَمَّد الْعَزِيز ابْن عاشور، جَامع الزيتونة المَعْلم وَرِجَاله، ص، 115، مقدمة كتاب التفسير " التحرير والتنوير " لمحمد الطاهر بن عاشور.